

الرحلات العلمية التلمسانية الوافدة على الأزهر الشريف ودورها في ربط أواصر التواصل الثقافي بين
المشرق والمغرب ما بين 962هـ / 1555م - 1107هـ / 1699م

**Tlemcen scholarly trips to Al-Azhar and their role in linking the bonds of
cultural communication between the East and the Maghreb between 962 H
/ 1555 AD - 1107 H / 1699 AD**

محمد بومدين

طالب سنة رابعة دكتوراه

جامعة أبو بكر بلقايد-تلمسان

الإيميل: mohammed.boumedine@univ-Tlemcen.dz

ت. الإرسال: 2021 .10 .20	ت. المراجعة: 2021 .11 .15	ت. القبول: 2021 .12 .04
--------------------------	---------------------------	-------------------------

الملخص:

تسعى مادة هذا المقال إلى تسليط الأضواء على العلاقات العلمية التي جمعت بين علماء تلمسان ونظرائهم المصريين، والتي مهدت البساط لتفعيل مجريات التأصيل العميق للصلات العلمية ما بين 962هـ / 1555م - 1107هـ / 1699م، وما شهدته هذه الأعوام من تركيز على الرحلة العلمية من قبل علماء تلمسان صوب الحواضر المصرية، وبالأخص الجامع الأزهر بالقاهرة الذي جذب برقي علومه ومشيخته، بعباءهم، على شكل وشائج علمية لم ترق إلى مصف الرسمية، وإنما كانت روابط مثقفين: علماء، متصوفة، فقهاء...، في وقت لم تكن لتعطلات التواصل السياسي من شأنها أن تقف كمطبات وحواجز أمام هذا المسعى وأدواته الخارقة للحدود السياسية المفتعلة، ليبقى في خضم ذلك طلب العلم والإجازة من أفاض الأئمة وزكوب هول الصعاب ومشاق الإفادة والاستفادة، القناة الوحيدة التي أبت الانقطاع والإستئصال، كحتمية تاريخية، باتت من الضروري اليوم بيان أثرها الثقافي بالبحث والاستكشاف من الرحلات الحجازية خلال العصر الحديث، عبر اتباع المنهج التاريخي السردى، الذي يستقصي الأثر العلمي والفكري لهؤلاء إلى العلماء في تلك البقاع الثقافية خلال الفترة محل الدراسة.

الكلمات المفتاحية: تلمسان؛ الأزهر الشريف؛ التواصل الثقافي؛ سنوات 962هـ / 1555م - 1107هـ / 1699م.

Abstract:

This paper examines the relations that brought together the scholars of Tlemcen and their Egyptian counterparts, and paving the way for the continuation and deepening of scientific relations between 1555 and 1699, and scholarly trips, during this period by many Tlemcen men to Al-Azhar, which attracted them thanks to its teachers and their-outstanding knowledge. These relations were not official, but were relations between intellectuals, scholars, Sufis ..., at a time when political relations were did not disrupt or stop this scientific communication and the pursuit of knowledge, Therefore, this study attempts to show the cultural impact of these scholars through the Hejaz journeys during the modern era, by using the narrative historical method.

Key words : Tlemcen ; Al-Azhar Al-Sharif; cultural communication; between 1555 and 1699

مقدمة:

يعدّ التمسك بالمعالم الدّينية والدّنيوية في المشرق والمغرب، أهمّ مقوم من مقومات الشخصية الجزائرية وهويتها، والتي ارتسمت مظهراتها مع الكثير من العلماء التلمسانيين الذين ساهموا إسهامًا فكريًا وعلميًا كبيرًا في تلك الصروح ومنشآتها التعليمية الراقية بمشايخها، ومناهج علومها المزدهرة التي استهوتهم، رغم مهاراتهم وما وصلوا إليه من درجات تفوّق في مختلف مجالات العلوم العقلية والنقلية.

وعلى هذا الأساس، شاركت تلمسان العديد من عواصم دول المشرق الإسلامي في الميادين العلميّة، كالخرمين الشريفين، وبغداد، وبلاد الشام، وعلى وجه التحديد القاهرة التي ولكن كان التواجد العلميّ التلمسانيّ فيها يضربُ إلى ما قبل العهد العثماني، فإنّ هذا العهد الأخير قد عرفت فيه هذه الحضرة العلميّة، موجات كبيرة ومتسلسلة من أعمدة العلم التلمسانيين، في حركة علميّة حجازية كثيفة بين الحاضرتين، حفلت بأخبارها العديد من كتب التراجم، والطبقات، وغيرها من أنواع المصادر المعاصرة ممّن تحدّثت في سيرِ علماء تلمسان الأزهريين، وجعلت منهم نقطة محوريّة وعنصرًا فاعلاً في تلك الأمصار خلال القرن 11هـ/17م.

وبناء على ما سبق، تبلورت في أذهاننا أسئلة عديدة لا حصر لها، قادتنا إلى الرغبة في المساهمة الجادة في هذا الحقل الثقافي، بورقة علمية موسومة ب: الرّحلات العلمية التلمسانية الوافدة على الأزهر الشريف ودورها في ربط أواصر التواصل الثقافي بين المشرق والمغرب ما بين 962هـ/1555م - 1107هـ/1699م. والتي سنسير فيها على منوال الدّراسات البيوغرافية في سير الأعلام ومسيرتهم، بالارتكاز على الكرونولوجيا التاريخية ونمطيتها ذات التسلسل الزمني في تتبع تاريخ الأعلام منذ ميلادهم إلى غاية وفاتهم، مرورًا بمنجزاتهم العلمية والفكرية، طمعًا منا في تقديم إضافة علمية رصينة، ولو بالنزر القليل الذي هو بجوزتنا من معلومات ومعطيات تاريخية، قد توجهنا إلى إلتماس الإجابة عن الأطروحات السالفة الذكر، وغمزات إشكالاتها المتتالية، عبر الشّكل ذي الطرز المنهجي والمعرفي الوارد أدناه:

1. خصائص الرّحلة العلميّة التلمسانية ودوافعها بين المغرب والمشرق:

عاشت تلمسان خلال العهد العثماني مرحلة صعبة من تاريخها الطويل، جراء سياسة أصحاب القرار بها من الأتراك العثمانيين، وممارساتهم التي ولكن أشاطت الأخضر واليابس، إلّا أنّها هيأت لهم أسباب التّفور والهجران إلى موطن الابتكار

والإبداع العلمي في الحرمين الشريفين والأزهر الشريف⁽¹⁾، اللذان ارتقوا فيهما إلى مصاف المبرزين والمجتهدين في غير واحد من أفانين العلوم، ما جعل الكثير من شيوخ وطلبة تلك الحواضر العلمية، يقبلون على مجالسهم العلمية لقطف ورد الأخذ العلمي الأصيل، في إطار التبادل الثقافي بين المشرق والمغرب، الذي بات وقتئذ ضرورة ملحة لكل عالم أراد مطارحة أفكاره، وتطويرها، ومناقشتها مع غيره من جهابذة الزمان بواسطة الرحلة الحجازية التي وسّمت تلك الحركة العلمية في مراميها وأهدافها الدنيوية والدنيوية.

1.1. تعريف الرحلة العلمية الحجازية:

الرحلة بمفهومها الواسع، هي مشتقة من الارتحال والانتقال من مكان لآخر؛ لتحقيق هدف معين، استنادًا لما جاء في «لسان العرب» (ابن منظور، (ج24)، 1990، ص: 1609)، على أن الرحلة مأخوذة من مادة: ر، ح، ل: «(...)» أي الأشخاص والإزعاج، والرحلة من الإبل: البعير القوي على الأسفار والأحمال (...).، وارتحل البعير رحلًا، سار فمضى، ثم جرى ذلك في المنطق حتى قيل: ارتحل القوم عن المكان ارتحالا (...).، ومن كل ذلك تشكلت أنواع الرحلات وأنماطها، والتي منها الرحلة العلمية الحجازية، النابعة من صميم طلب العلم والمثابرة عليه (محمد فهميم، 1978، ص: 59).

2.1. دوافع هجرة علماء تلمسان إلى حواضر المشرق الإسلامي:

وإلى جانب ينابيع الرحلة العلمية وأصنافها المختلفة، نُظِمَت هذه الرحلات في قالب نشري وشعري، ذكُر فيه الحجاز والتشويق إليه، ودعا مؤلفوه العلماء على أخذ العلم من أصحابه، وضرورة توثيق مروياتهم، ونقولهم، بالتحقيق، والتدقيق، وتحمل تعب لقاء المشيخة، جعلت الخلف تسير على هذا الطريق، ليصدق فيهم ما قيل على لسان رواد هذا الفن الأدبي من شيوخ وعلماء المغرب والأندلس، في وجهتهم الوجهية التي كانت بادئ ذي بدء مكة، للحج والعمرة، ثم السير إلى بلاد الشام، والحجاز، ومصر، لالتقاء أساتذة أجدادهم (نواب يوسف، 1996، ص: 46)، تحولت إلى صدى عالمي يستدعي الميجيز والميستجيز (نواب يوسف، 1996، ص: 46).

⁽¹⁾ جامع الأزهر: هو جامع وجامعة، أنشئ على يد «جورج الصقلي» عندما تم فتح القاهرة عام 378هـ/ 970م، بأمر من «المعز لدين الله» أول الخلفاء الفاطميين بمصر. وقد اختلف المؤرخين في أصل تسمية هذا الجامع، الذي سمي في البداية بـ: «المنصورية»، ثم أطلق عليه مسجد «قاهرة» بعد تأسيس المدينة، والراجح أن الفاطميين سموه بالأزهر تيمناً بفاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم. والأزهر معناه «المشرق» وهو صيغة المذكر لكلمة الزهراء، ويعد هذا المسجد ثالث أقدم المساجد الجامعة للعلم والعلماء بعد القيروان والقرويين. (خفاجي، 2012، ص: 67).

وفي خضم ذلك، صار الاعتقاد السائد لدى سادة العلماء المغاربة هو أنّ شخصيتهم العلميّة لا تكتمل إلا بمطارحة المشاركة، وهذا هو سرُّ كثرة الرّحلات نحو المشرق، وقتلتها نحو المغرب، فشهاب الدين المقرّي ذكر ثلاثة مائة وسبعة راحل أندلسي إلى المشرق، بينما لم يذكر من الرّحالة المشاركة إلا حوالي ست وثمانون راحلاً فقط (المقرّي، نفع الطيب، ج2)، (1998، ص: 5)، ولا يُفسَّر هذا إلا بشعور المغاربة بالتلمذة للمشاركة، فالضرورة تدعو إلى شد الرّحال إليهم، ولو بُعد المكان، وطال الزمان، وتبدّدت سماؤه بفعل مفرزات أحكامه المستجدة على جميع المستويات السياسية، والعسكرية، والثقافية، وتطوراتها القاسية جدًّا على أهل العلم بتلمسان طيلة الفترة العثمانيّة.

وعليه، فإن الدافع العسكري المتمثل في الضغط الأوربي على سواحل المغرب العربي، كان بمثابة «القشة التي قصمت ظهر البعير»، كما يقال، في ظل الأوضاع الثقافية المتفهمرة داخليًّا مع نهايات الفترة الوسيطة وبدايات رديفتها الحديثة بتلمسان، ممَّا أدى بالعديد من علمائها أن يتركوا وطنهم في حركتي هجرة كبيرتين إلى القاهرة والإسكندرية، ومنطقة طولون بمصر، أوّلها حدثت إبّان القرن 10هـ/16م، والثانية في القرن 11هـ/17م (عبد المعطي، 2008، ص: 126). والتي لا يمكن اعتبارها في أي حال من الأحوال وحدها من الأسباب التي حملت نخبة تلمسان على اختيار المشرق وما له من امتيازات الرّحلة والاستقرار، كالحج والتعليم.

1.2.1. الحج والتعليم:

إنّ فريضة الحج في الإسلام، كانت من أعظم بواعث السفر لآلاف من المغاربة إلى الحجاز، وبعد قيامهم بهذه الشعيرة بالحرمين الشريفين، كان جلّهم يزورون المقامات المباركة بالمشرق، كالمسجد الأقصى بالقدس، وقبر إبراهيم الخليل في حبرون، ثم يعرجون على دمشق، ومدائن أخرى من الشام، وطالما زاروا بغداد عاصمة العباسيين بالعراق، وفي رجوعهم يقفون برهة بمصر حيث الجامع الأزهر، الذي كان جامعًا وجامعةً علميّة تتوسّط العالم الإسلامي (المواقي، 1995، ص: 28).

2.2.1. موقع مصر الوسط بين عدوة المغرب والحجاز:

ويعدّ الموقع الجغرافي للحضرة المصريّة، التي تتوسط عدوة المغرب من جهة والمشرق الإسلامي من جهة أخرى، من بين الأمور التي ساعدت على زيادة الرغبة في الرّحلة عند المغاربة و الاهتمام بها ولهذا انتظمت رحلاتهم، الأقطار المختلفة شرقًا، حاملين مشعل أسلافهم في تفعيل وتجسيد أواصر التلاحح العلمي والفكري الذي برزت معالمه بُروزًا ملفتًا للنظر في القرن 11هـ/17م.

2. التواصل الثقافي لعلماء تلمسان في الأزهر الشريف من النصف الثاني للقرن 10هـ/16م حتى النصف الأول من القرن 11هـ/17م:

إن التواصل الثقافي في غايته ومقاصده، هو التَّوَاصُلُ والاستمرار، وتبادل المنافع العلميَّة وفوائدها، كيفما كانت ماديَّة أو معنويَّة، حيث أنَّ استمراريَّة الإنسانِيَّة جمعاء، تتطلَّب تضافر الجهود، وتضامن الأفراد والجماعات، وتعاونهم في تسخير أمر دينهم لحل مشاكل دُنْيَاهُمْ (ابن خلدون، المقدمة، 2007: 578 - 579)، بتبادل الاجتهادات الفقهيَّة والشرعيَّة بين أقطاب الأمة منهم، الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنَ الْمَرَاكِزِ الدِّينِيَّةِ مَرَاتِعَ عِلْمِيَّةٍ، يَتَسَابِقُونَ فِيهَا وَيَتَنَافَسُونَ، وَيَسْتَقْبِلُونَ بِهَا مَنْ أَرَادَ أَنْ يَجَاوِرَهُمْ، وَيَشْكَلُ حَوْلَهُمْ رِبَاطَ الْعِلْمِ، لِيُرْوِيَ ظِمَاءَهُمْ، وَيَشْفِي قُلُوبَهُمْ بِالْمَعْرِفَةِ وَأَصُولِهَا.

1.2. المرجعية الدِّينية والدُّنيويَّة للمجاورة بالأزهر الشريف عند علماء تلمسان العثمانيَّة:

ظل الأزهر الشريف يمثل المرجعيَّة الدِّينية لعلماء عدوة المغرب عمومًا، والتلمسانيين خاصة، الَّذِينَ قَصَدُوهُ لِلْمَجَاوِرَةِ (2) الْعِلْمِيَّةِ بِلَا هَوَادَةٍ، رَغْمَ أَنَّ تَعَدَّدَ أخطار السفر آنذاك (لزعيم، (د.ت)، ص: 263)، لم تكن لتمنعهم من طرق أبواب هذا المنشأ الهام، كونه رَمَزٌ من رُمُوزِ الحضارة الإسلاميَّة، وقبلة ثقافية قصدها فيما مضى وإلى ذلك الحين، وبعده إلى اليوم، العلماء من كل أوطان (الدسوقي، 2012، ص: 46)، كان قد عُرِفَ منهم بهذا الصَّنِيعِ فِي تَلْمَسَانَ الْعُثْمَانِيَّةِ لَيْسَ بِالْقَلِيلِ، اخْتَرْنَا مِنْهُمْ نَمَازِجَ نَسْتَعْرِضُهَا تَبَعًا فِي الْآتِي:

2.2. الإسهامات العلميَّة والفكريَّة لعلماء تلمسان بالأزهر الشريف ما بين 962هـ/ 1555م - 1107هـ/ 1699م:

قبل التطرق لهؤلاء العلماء، ولكل ما مسَّ حياتهم العلميَّة، لا بد من الإشارة إلى أنَّ تيارًا علميًّا زاخرًا بين المشرق والمغرب قد لاح في الأفق، مع أفواج العلماء الذاهبة والآية بين القطرين إبان هذه الفترة الزمنية، حتَّى شَبَّهَ نشاطهم ذلك بحركة سير النمل. ومن بين هؤلاء العلماء نذكر:

(2)المجاورة: هو مصطلح أطلق في بادئ الأمر على كل رحالة أخذ من بيت الله الحرام مكانًا يركن فيه، ويجاوره، ويعيش قربه، ويباشر فيه حياته العلميَّة والأدبيَّة، ثمَّ عُمِّمَ على كل المقدسات الدِّينية والدُّنيويَّة الموجودة بعواصم البلاد الإسلاميَّة. (عبد الرحيم، 1982، ص: 189).

1.2.2. أبو سليمان داود بن عبد الله البغدادي التلمساني (كان حيا سنة 980هـ/1572م):

أحد علماء تلمسان الأطباء، الذين اختصوا على ما يبدو في العلوم العقلية، ومن الذين ارتحلوا إلى المشرق للاستفادة من علمائه المبرزين في هذه الفترة، وقد كان من بين محطاته إلى هناك، جامعة الأزهر بمصر التي كانت تعج بالعلماء الذين جعلوا من عالم تلمسان هذا، سننًا متواترًا في سردهم للطب النبوي؛ وهذا ما أشار إليه واحد من هؤلاء العلماء أبي القاسم الشفشاوني في دوحته، قائلاً: «الطبيب الماهر، وكان ضريراً أعمى، لقيته بمصر سنة 980هـ/1572م، وكتب الطب تسرد عليه، ومعرفته في الطب عظيمة» (الشفشاوي، دوحه الناشر، 1977، ص: 19).

2.2.2. أبو الطيب الحسن بن يوسف بن مهدي يحيى بن مهدي بن محمد بن يوسف بن مهدي العبد

الوادي ثم الزياتي التلمساني (ت 1023هـ/1614م):

المشهور في تلمسان بـ: «الشيخ الأزهري» وبـ: «ابن مصري» لشدة تعلقه بالأزهر الشريف، حيث أورد أخباره تلك وباقتضاب أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي (ت 1134هـ/1722م)، في مخطوطته: «المنح البادية» (ص: 24)، في حد قوله: «(...) أبي الطيب الحسن بن يوسف بن مهدي يحيى بن مهدي بن محمد بن يوسف بن مهدي العبد الوادي ثم الزياتي (...) يعرف في بلاده بابن مصري ويعرف في غيرها به (...)».

3.2.2. أبو العباس أحمد بن محمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي العيش المقرئ التلمساني

(ت 1041هـ/1641م):

كان محدثًا، وأديبًا، ومؤرخًا، من فقهاء المالكية، ولد بتلمسان (عبد المنعم القاسمي: 2005: 327)، وتوفي بمصر بعد رجوعه من الحج، قضى حياته كلها في التعلم والتعلّم، فنهل علم الفقه عن عمه أبي عثمان سعيد المقرئ (كان حيا سنة 1011هـ/1611م)⁽³⁾، ثم رحل الاسكندرية منذ خروجه من فاس سنة 1027هـ/1617م، قاصداً حج بيت الله الحرام، وذلك اثر تطاحن أبناء أحمد المنصور السعدي (ت 1012هـ/1603م)⁽⁴⁾، فتذرع بأداء فريضة الحج،

⁽³⁾ أبو عثمان سعيد بن أحمد المقرئ (كان حيا سنة 1011هـ/1611م): هو سعيد بن أحمد بن أبي يحيى بن عبد الرحمان بن بلعش المقرئ، تلقى العلوم الأولى وهو صبي، فحفظ القرآن الكريم، وألم على مصنفات النحويين من «أجرومية» و«ألفية» وغيرهما، ثم راح ينهل من مختلف صنوف المعرفة وفنون العلم، حتى بلغ شأنًا عظيمًا في الدرس والتحصيل، ولا سيما في التوحيد، والفقه، والعربية، والأمثال، وأيام العرب، كما برز في العلوم العقلية من حساب، ومنطق، وفرائض، وهندسة، وطب، وتنجيم، وفلاحة... توفي على ما يظهر سنة 1011هـ/1611م. (محمد مرتاض، 2004، ص ص 285، 288).

⁽⁴⁾ أبو العباس أحمد المنصور (ت 1012هـ/1603م): هو أبو العباس أحمد بن محمد المهدي الشيخ بن محمد القائم بأمر الله الزيداني الحسيني السعدي، ولد بفاس عام 956هـ/1549م، كان من المهتمين بالعلم والعلماء، مؤلفا للكتب، ومجالسا للعلماء، فكان الطابع العلمي من أهم مميزات هذا السلطان، إلى جانب معاملاته الدبلوماسية والتجارية التي أنعشت المغرب، توفي مطعونا ليلة الاثنين 16 ربيع الأول عام 1012هـ/24 أوت 1603م، ودفن بإيراء الجامع الأعظم

وهو ما لم يصرح به المقري، لكن يفهم مما ورد في بعض مؤلفاته أن تلك الفتنة أزعجته فاضطر إلى الهجرة، ومن ذلك قوله متحدثاً عن هجرته من المغرب: «إنه لما قضى الملك الذي ليس لعبيده في أحكام تعقب أو رد (...)»، برحلي من بلادي ونقلتي عن محل طارفي وتلاذي، بقطر المغرب الأقصى الذي تمت محاسنه، لولا مسامرة الفتن سامت بضائع أمنه نقصاً» (المقري، ج1، ص: 13).

هذا، وقد ذكر معاصره عبد الكريم الفكون السياق نفسه عن أسباب ارتحاله إلى مصر، فقال: «(...) وبعد فساد بلد فاس بتبدل دولها بين أولاد أميرها وتداعت للخراب، ارتحل عنها، يقال إنه عن خوف من الأمير الذي تولى إذ ذاك (...)»، فنزل بدار الجزائر على فقهاؤها وعلمائها، وتصدى للتدريس بها وقرأ التفسير على ما قيل في أيام إقامته» (الفكون، منشور الهداية...، 1987، ص: 92).

ولما سافر إلى المشرق واجتاز على تونس، وصحبه منها إمام جامع الزيتونة بها أبو محمد تاج العارفين، فسافرا معاً إلى الحج في البحر، وأقام المقري بالأزهر الشريف (الجنحاني، 1955، ص: 56). منذ أن حلَّ بمصر في جمادى الأولى من عام 1028هـ/ 1618م، فدرس به مدة الحديث والعقائد (الكتاني، فهرس الفهارس، ج1، 1982، ص: 574)، وهو ما ذكره الشلي في «الجواهر» (2003، ص: 223)، بقوله: «نزىل القاهرة العلامة الحافظ المسند (...)»، ما له في سعة الحفظ نظير جنى ثمرات العلوم العقلية والنقلية (...)، وأما فقه المالكية فهو في أجل مسند هنالك. وأما الحديث فقد بوأه الله فيه بر كرمه بين العليا والسند (...)، فألقى بها عصى التيسار، ونفض عن برد همته غبار الأسفار، وأصبح طراز العلوم به مذهبا، ودرس بالجامع، (...) مع الأزهر فنون العلم وتربع واجتبي (...).

لقد جلس المقري إلى حلقات بعض المشايخ بالمشرق على سبيل المذاكرة وهم: الشيخ نور الدين علي بن زين العابدين الأجهوري (ت1061هـ/ 1653م)⁽⁵⁾، ونجم الدين محمد بن محمد العامري الغزي (ت1061هـ/ 1653م)⁽⁶⁾،

بفاس الجديدة، ثم نقل على مراكش ودفن في قبور الأشراف قبلي جامع المنصور بالقصبة. (ابن القاضي، المنتقى المقصور...، ج1)، 1986، ص: 220 - 230).

⁽⁵⁾ أبو الحسن علي بن زين العابدين مُحَمَّد بن أبي مُحَمَّد زين الدِّين عَبْد الرَّحْمَن بن علي أَبُو الإرشاد نُور الدِّين الأجهوري المالكي (ت 1061هـ/ 1653م): هو نور الدين الأجهوري علي بن محمد بن عبد الرحمن بن علي، الملقب بأبي الإرشاد، وهو شيخ المالكية في عصره بالقاهرة، كان محدثاً فقيهاً، له العديد من الكتب، منها «شرح الدرر السنية» في نظم السيرة النبوية... (المجيبى، خلاصة الأثر...، ج2)، (د.ت)، ص: 59).

⁽⁶⁾ نجم الدين محمد بن محمد بن محمد الغزي الدمشقي العامري (ت 1061هـ/ 1653م): عالم من أهل الشام، ولد في عام 977هـ/ 1570م، في دمشق، قرأ القرآن على يحيى بن العماد، ولازم العلامة شهاب الدين أحمد العياشي وغيره من شيوخ دمشق، حتى برع في العلوم، وتصدر للإفادة والتحديث في المسجد الأموي، وانتهت إليه في عصره رياضة العلم السنية، وقد كان فقيهاً شافعيًا، عالماً بالأصول والتفسير والحديث، وله مؤلفات في الأدب والشعر أيضاً، توفي سنة 1061هـ/ 1651م. (المجيبى، خلاصة الأثر...، ج1)، (د.ت)، ص: 99).

صاحب «الكواكب السائرة في أعيان المائة العشرة»، وعبد الرؤوف بن تاج الدين المناوي (ت 1031هـ/1623م)⁽⁷⁾، كما كان يحضر دروس صهره الشيخ أبو يعقوب يوسف بن عبد الرزاق بن أبي العطا بن وفا (ت 1051هـ/1643م)⁽⁸⁾.

وإلى جانب هؤلاء، فقد حكى المقرئ للشاهيني (ت 1053هـ/1645م)⁽⁹⁾: «(...) أنه قد اجتمع بأبي الغيث القشاش وهو الولي القطب العارف الكامل المرشد قدس الله سره العزيز، وقد كان منذ أربع سنين لم يجتمع بأحد. وقال لي قد ألبسني الخرقه ودعا لي (...)» (ابن شاهين، تقرير عن إقامة المقرئ بدمشق، الورقة رقم: 6).

هذا، وقيل عنه أنه أفاد أكثر مما استفاد، ومظهر ذلك في مؤلفاته العديدة التي ألفها هناك في العلوم المختلفة، وتلامذته الذين جلسوا إليه وأخذوا عنه علومًا كثيرة وأجازهم فيها، وفي إتفاف طلبة الأزهر حوله بمجرد وصوله إلى مصر، دليل واضح على مقدرته العلمية التي أتى بها من مدينته تلمسان (الجنحاني، 1955، ص: 66).

ولما اقترب موسم الحج توجه إلى الحرمين الشريفين، فأدى الفريضة، وأقام هناك مدة، ثم عاد إلى مصر في محرم 1029هـ/1619م، فاستوطنوها نهائيًا، وظل يتردد منها على الحرمين الشريفين، فحج خمس مرات، وزار المدينة المنورة خمس مرات، ودمشق مرتين (الجنحاني، 1955، ص: 266)، وعند عزمه على العودة إليها والاستقرار بها في المرة الثالثة وافاه الأجل، على ما ذكره القبرصي (التقرير...، الورقة رقم: 8)، قائلًا: «(...) وذكر لي أنه رحل إلى الشام زائرًا ورجع إلى مصر، وبلغني أنه مشغول بوطنه وأهله، لأنه ترك به زوجا وابنة، فيقال لي إنه مهما تذكر ذلك بكى وحزن (...)». لذلك رجع إلى مصر، فيما اردفه المؤلف السابق، بقوله: «(...) ثم رجع إلى مصر ليأتي بأثائه وكتبه، ويقضي منها مآربه، فأدركه أجله وتوفي بها السبت خامس عشر جمادى الأولى. ودفن بترية الأقلية قرب تربة المجاورين» (التقرير...، الورقة رقم: 8). فيكون بذلك قد قضى حوالي اثني عشر عامًا منتقلًا بين مصر والشام والحجاز (لزغم، د.ت)، ص: 263).

⁽⁷⁾ عبد الرؤوف بن تاج الدين المناوي (ت 1031هـ/1623م): هو محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين ابن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري، زين الدين، المشهور بالمناوي، ولد سنة 952هـ/1544م، عاش في القاهرة، وتوفي بها سنة 1031هـ/1623م، اهتم بالبحث والتصنيف، له تأليف كثيرة، منها: «شرح على تانية ابن الفارض». (المجّي، خلاصة الأثر...، ج1)، (د.ت)، ص: 99).

⁽⁸⁾ أبو يعقوب يوسف بن عبد الرزاق بن أبي العطا بن وفا (ت 1051هـ/1643م): هو أبو الإسعاد يوسف بن أبي العطا عبد الرزاق بن أبي المكارم ابن إبراهيم بن وفا، ولد سنة 993هـ/1585م، وكان كثير الحج، يحج عامًا ويقيم عامًا، وزار القدس والخليل، وله مؤلفات منها «شرح رسالة الشيخ أبي بكر بن سالم المسماة بنور الحديقة»، وله ديوان شعر جليل، وغير ذلك من المؤلفات، وكانت وفاته ليلة الأحد، من صفر سنة 1051هـ/1643م. (المجّي، خلاصة الأثر...، ج4)، (د.ت)، ص: 74).

⁽⁹⁾ أبو العباس أحمد بن شاهين القبرصي (ت 1053هـ/1645م): ترك والده قبرص وسكن دمشق، فولد الشاعر بها سنة 995هـ/1587م، وتلمذ على يد والده، ثم التحق بالجيش العثماني، أسر في إحدى المعارك ثم أطلق سراحه، فأنصرف إلى الأدب وعرف حينها بالشاهيني نسبة إلى والده، تولى القضاء في الركب الشامي إلى الحج، كان الشاهيني شاعرا ويهتم بعلم الكيمياء، ترك مؤلفات منها: «كتاب في اللغة»، و«مختصر للقاموس المحيط»، و«ديوان شعر»، توفي الشاهيني في شوال سنة 1053هـ/1645م، ودفن في مقبرة الفراديس بدمشق. (ابن شاهين، تقرير عن إقامة المقرئ بدمشق، الورقة رقم: 9).

4.2.2. أبو علي الحسن بن علي التلمساني (كان حيا سنة 1060هـ/1650م):

محدث من كبار العلماء، تعلم بتلمسان، ثم رحل إلى المشرق فأخذ عن علماء الحجاز ومصر، وعاد لتلمسان التي وافاه الأجل بها (موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، 2002، ص: 199).

5.2.2. أبو العباس أحمد بن محمد بن حمدان التلمساني القصري (ت 1018هـ/1610م):

من بين ما وصل إلينا عن سيرة ومسيرة هذا العالم استنادًا إلى بعض المراجع المتخصصة، أنه كان وليًا صالحًا وعلامةً فقيهاً، ومحدثاً متمكناً، من غير تطرفها لتاريخ ومكان ولادته، ولا نشأته وتعليمه، ولا العلماء والفقهاء الذين تتلمذ علي أيديهم وأخذ عنهم، إلا أنها أشارت لأصله أنه كان من علماء تلمسان، وتوفي سنة 1018هـ/1610م، بمدينة القصر الكبير بالمغرب الأقصى مكان هجرته (الكتاني، فهرس الفهارس، (ج 1)، 1982، ص: 151)، على ما أورده الكتاني في فهرس الفهارس ((ج 1)، 1982، ص: 151)، بقوله: «العلامة المحدث الحافظ الراوي دفين مدينة القصر الكبير، وأحد أعلامها (...).»

ومن جانب آخر فقد جمعته علاقة متينة مع العالمين الشهيرين أبي عبد الله الكنيكسي، وأبي العباس الهشتوري، فتوجهوا جميعاً إلى الشرق لطلب العلم، كما يبدو أنهم قد حملوا معهم من علم الحديث والسند ما كان قد فقد في المشرق بناءً على ما ذكره الكتاني في المؤلف السابق ((ج 1)، 1982، ص: 151). وعن هذا السند ورد في المؤلف نفسه: «واشتهر في مصر أدخله إليها الهشتوري وابن حمدان التلمساني والكنيكسي، أخذ عنهم الدمهوري والمولوي والجوهري (...).» ((ج 1)، 1982، ص: 151).

ولما عاد التلمساني من المشرق استقر هو وصديقه الكنيكسي بالقصر الكبير، يعقد مجالس العلم إلى أن توفي ودفن بها، ليصبح ضريحه إلى اليوم مزاراً بالقصر الكبير، سمي ب: «ضريح القصري» أو «التلمساني»⁽¹⁰⁾.

هذا، وحسب الكتاني أن قليل من أهل المدينة المذكورة من يعرف أنه إمام في الحديث ((ج 1)، 1982، ص: 151).

⁽¹⁰⁾ضريح القصري: هو ضريح سيدي أحمد التلمساني، أحد العلماء الصالحاء، ممن قدموا للمدينة علمهم وإرشادهم، مقبلين على القصر الكبير من تلمسان. ويوجد ضريحه وسط المدينة المذكورة، حيث قال عنه الأستاذ محمد أحرif، ضمن مقال له بعنوان «إطلالة على أولياء مدينة القصر الكبير»: «يوجد هذا الضريح بطريق الزنيدية، وهو مشهور، ويقال أنه من أناس يدعون بالتلمسانيين بقبيلة سماتة بمدشر تولة من الشرفاء السليمانيين»، ويمتاز هذا الضريح بواجهة أثرية أضيفت عليها المقرنصات، والقوس العربي، والباب الخشبية جمالاً أحياناً، وربما لهذا أثار إعجاب الشاعر الإسباني «انطونيو رودريغيز غوردباله»، فأوحى له بقصيدة عنوانها «باب سيدي التلمساني بالقصر الكبير» أهداها إلى «أومبيرطو فيرنانديس كورتاريكو»، صاحب كتاب: «القصر الكبير 1950م». (الطود، 2004، ص: 82).

6.2.2. أبو عبد الله محمد بن عبد الله التلمساني (القرن 11هـ/17م):

لم يصلنا الشيء الكثير في ترجمته، إلا أننا أردنا إضافته لنبرز التواصل العلمي القائم بين تلمسان والمشرق، حيث كان بمن رحل إلى الأزهر الشريف، فأخذ هناك عن شيوخ مغاربة ومشاركة، منهم ثلة قليلة من العلماء الأزهريين (الكتاني، ج 1، 1982، ص: 164).

الخاتمة:

ما يسعنا أن نقوله في الأخير، حول ما سبق عرضه حول الرّحلات العلمية التلمسانية الوافدة على الأزهر الشريف ودورها في ربط أواصر التواصل الثقافي بين المشرق والمغرب ما بين 962هـ/1555م - 1107هـ/1699م، أنّها مرحلة تاريخية خصبة من تاريخ تلمسان الثقافي، في سبيل إبراز بعض منجزات علمائها، والبرهنة على تفوقهم وأصالتهم العلميّة بالأزهر الشريف، باستعراض نماذج منهم ولو بصورة موجزة، استنتجنا على ضوءها جملة نتائج، ملخصها في الآتي:

- تعد المجاورة العلميّة للمقدسات الدّينية والدّنيوية من أهم ما دأب عليه علماء تلمسان من جهة، ودفعهم من جهة أخرى إلى الوفود على حواضر مصر العثمانيّة ومؤسساتها التعليمية التي كان يسودها مناخ ثقافي يستقطب إليها العام والخاص، في فترة زمنية استثنائية لقي فيها هؤلاء العلماء من قبل حكام مصر العثمانيين الترحيب، وكل ما يلزم في مقام علو شأنهم، مهيين لهم البساط لأنشطتهم العلمية، وغيرها ممّا لم ينالوه في مدينتهم تلمسان التي كانت تعيش ركوداً علمياً، وعدم إهتمام ثقافي من جانب ساستها الأتراك.

- عرفت السنوات الممتدة من 962هـ/1555م حتى 1107هـ/1699م، رّحلات علميّة حجازية تلمسانيّة كثيفة، بغية أداء فريضة الحج، ومواصلة تشكيل رباط العلم خاصة حول أساتذة وشيوخ الأزهر الشريف، الذي حلّوا به طلبة ودارسين، وفي أحيان أخرى مُدرّسين، يُجيزون ويستجازون في أمّهات الكتب الفقهيّة، وعبر مختلف المجالس العلميّة، وحلقات المناظرة والتّدرّيس، التي سُجّلت ودوّنت في كتب التراجم، لرقّيتها وأصالتها، وجدّية محتواها في المنهج والتلقين، والتبحر في المعرفة وفنون العلوم، أمسوا على أثرها حلقة وصل أساسية بين المشيخة وطلابها في المشرق والمغرب، وسند متواتر حازه جمهور العلماء بتلمسان، في ظل منافسة شرسة وشريفة من علماء وقتهم في تلك الأصقاع، محصلين بذلك رّفعة ووقار علمي من كافة أهل العلم في حواضر البلاد الإسلاميّة.

كان للتواصل الثقافي بين المشرق والمغرب أثر كبير في ازدهار الحركة العلميّة وتقوية روابطها بتلمسان، فقد كان أولئك العلماء التلمسانيين الراحلين إلى المشرق، يحملون معهم كثيراً من العلوم والمعارف المختلفة، إلى جانب أعداد كبيرة

من المصنفات، والتأليف، في شتى ميادين العلوم وفروعها، وكان لهذا اللون من النشاط العلمي ثمرتان مباركتان، هما ما يحمله العالم في صدره من علم ومعرفة، وما ينقله معه إلى موطنه من كتب قيّمة، زادت لا محال من النشاط العلمي في تلمسان بصورة سريعة ومتنامية في الفترة العثمانية.

البيبلوغرافيا:

1. - الجناحاني الحبيب، (1955)، المقرري صاحب نفع الطيب - دراسة تحليلية، دار الكتب الشرقية، تونس.
2. - ابن خلدون أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ/ 1403م)، (2007)، المقدمة، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، لبنان.
3. - الدسوقي وائل إبراهيم، (2012)، التاريخ الثقافي لمصر الحديثة «المؤسسات العلمية والثقافية في القرن التاسع عشر»، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة.
4. - الشفشاوني أبو القاسم محمد بن علي بن عسكر الحسيني العلمي (ت 986هـ/ 1578م)، (1977)، دوحة الناشر بمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق: محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط.
5. - الشّليّ جمال الدين محمد بن أبي بكر بن أحمد الحسيني باعلوي (ت 1093هـ/ 1682)، (2003)، عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر، تحقيق: المقحفي إبراهيم أحمد، مكتبة الإرشاد، صنعاء.
6. - الطود محمد المهدي الحسيني، (2004)، القصر الكبير ورجالاته عبر التاريخ، مطبعة طوب بريس - الرباط.
7. - الفاسي أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عبد القادر (ت 1134 هـ / 1722 م)، مخطوط: المنح البادية في الأسانيد العالية والمسلسلات الزاهية والطرق الهادية الكافية، مكتبة الأزهرية، يحمل رقم: 53083.
8. - الفكون أبو الحسن عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن قاسم بن يحيى التميمي (ت 1070هـ/ 1665م)، (1987)، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق: سعد الله أبي القاسم، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
9. - القبرصي أبو العباس أحمد بن شاهين (ت 1053هـ/ 1645م)، مخطوط: تقرير عن إقامة المقرري بدمشق، مكتبة جامعة لاينز الألمانية، مجموع رقم: D.C 323.06، يحمل رقم: 0863.06، الورقة رقم: 9.
10. - ابن القاضي أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي الفاسي (ت 1056هـ/ 1651م)، (1986)، المنتقى المقصور على مآثر مولانا المنصور، (ج1)، دراسة وتح: محمد رزوق، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط.
11. - الكتاني عبد الله الكبير، (1982)، فهرس الفهارس والأبحاث ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، (ج 1)، دار الغرب الاسلامي، بيروت.
12. - خفاجي محمد عبد المنعم، علي صبح علي، (2012)، الأزهر في ألف عام، (ج1)، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة.
13. - المقرري شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني (ت 1041هـ/ 1631م)، (1998)، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، (ج2)، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر العربي، بيروت.
14. - المدني أحمد توفيق، (1986)، محمد عثمان باشا داي الجزائر 1766م - 1791م سيرته، حروبه، أعماله، نظام الدولة والحياة العامة في عهده، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

- 15.. الميجي أبو عبد الله محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين بن محمد الحموي (ت 1111هـ / 1711م)، (د.ت)، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، (ج2)، طبعة حجرية، الرباط.
- 16.. (موسوعة)، (2002)، موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين، دار النهضة، الجزائر.
- 17.. ابن منظور أبو عبد الله محمد مكرم بن علي المصري (ت 711هـ / 1311م)، (1990)، لسان العرب، (ج24)، دار الصادر، بيروت.
- 18.. المواي ناصر عبد الرزاق، (1995)، الرحلة في الأدب العربي، مكتبة الوفاء، القاهرة.
- 19.. عبد الرحيم عبد الرحيم عبد الرحمان، (1982)، المغاربة في مصر في العصر العثماني 1517م / 1798م دراسة في تأثير الجالية المغربية من خلال وثائق المحاكم الشرعية المصرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
- 20.. عبد المعطي حسام محمد، (2008)، العائلة والثروة، البيوتات التجارية المغربية في مصر العثمانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
- 21.. لزغم فوزية، (د.ت)، الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية 1520م - 1830م، مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، وهران.
- 22.. محمد فهيم حسين، (1978)، أدب الرحلات، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
- 23.. مرتاض محمد، 2004، من أعلام تلمسان - مقارنة تاريخية فنية -، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران.
- 24.. نواب عواطف محمد يوسف، (1996)، الرحلات المغربية والأندلسية - دراسة تحليلية مقارنة -، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض.